ويستغلونها، من الجهة الاخرى. وفي حرب ١٩٨٢، وفي ابان حصار بيروت، ظهرت آثار ذلك جلية لعيان الذين تؤهلهم مواقعهم لرؤية الصورة بحذافيرها. ولم تكن القصص التي شاعت عن هرب البعض او استثمار البعض لظروف الحصار من اجل جني المنافع الخاصة، سوى الامثلة الصارخة التي امكن ان يشهدها الجميع.

ان الامراض التي لحقت بالجسد الوطني الفلسطيني، التي نمت على نحو مضطرد بين فترتي التواجد في الاردن، اواخر الستينات، والخروج من بيروت، اوائل الثمانينات، لم تشتمل على مظاهر الفساد الشخصي وحدها، على الرغم من ان هذه هي الاكثر شهرة، بل اشتملت، ايضا، وهذا هو الاخطر، على ترهل المؤسسات وتغييب دورها لحساب اشادة غير صحيحة بالمبادرة الفردية، كادت تجعلها في الوسط الفلسطيني موضع التقديس المطلق، وتحلها، شرعا، محل العمل الجماعي المنظم. وهذا بالذات، من بين كل مظاهر الفساد الاخرى، كان بالغ التأثير في جعل اداء الثورة اقل من امكانياتها، وانجازاتها اضأل من تضحيات ابنائها. وهو ما اشاع داخل صفوف منظمة التحرير، فصائل ومؤسسات، مظاهر الفردية، بدل الجماعية، والارتباط عبر الموالاة الشخصية وتبادل المنافع، بدل الانضباط الثوري. وهو، ايضا، ما احل التنافق محل النقد والنقد الذاتي، وجعل الوشاية بديلا للتقدير المبني على اسس موضوعية، وزين شيوع الروح التآمرية، وما الى ذلك من الامراض المميتة للثورات، حتى شاعت في صفوف المناضلين روح اليأس والاحباط.

لقد ترافق التطور المضطرد للفكر السياسي الفلسطيني نحو الواقعية مع نمو مظاهر الفساد الشخصي والسياسي. ومع ان منظمات الرفض شهدت هي الاخرى مظاهر فساد مماثلة، فقد اقترن التطرف في بعض الحالات بالدعوة الى مكافحة الفساد؛ وبرز ذلك، خصوصا، منذ اصبح الرفض اقلية. فالحجوم الكبيرة للفساد ظهرت، اشد ما ظهرت، في صفوف الاغلبية القوية بطبيعة الحال، مما سهل توجيه الاتهامات الى هذه الجهة، وصرف الانتباه عن مظاهر الفساد التي تفعل فعلها في صفوف الاقلية.

وبوضع كهذا، بعجره وبجره، وصلت منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان الى الشأن الذي بلغته حين وقع الغزو الاسرائيلي في صيف ١٩٨٢: قوة كبيرة تحكم الساحة برغبة الموجودين فيها او ضد رغبتهم اذا اقتضى الامر، وايجابيات تنتشر وتفعل فعلها وسلبيات تنمو فتأكل الجسم الكبير.

وقد اسهمت في تعميم الظواهر السلبية على الساحة الفلسطينية عوامل استثنائية، جعلت حصة منظمة التحرير الفلسطينية من هذه الظواهر تفوق حصة مثيلاتها من الثورات الوطنية البرجوازية التي عرفناها في هذا العصر. من ذلك ان الفصائل التي تتكون منها منظمة التحرير هي منظمات لاجئة نشأت على ارض غير ارضها، وهذا في حد ذاته سبب لعدم الثبات. فاذا اضفنا اليه ان الدول العربية طمعت في ان يكون لها مربط فرس او اكثر في الساحة الفلسطينية، فاستغلت حاجة الفصائل ومنافساتها، امكن ان نتصور حجم الفساد الذي ستؤدي اليه الاموال العربية او سيؤدي اليه التسابق لاكتساب النفوذ في هذا البلد العربي او ذاك، او ذاك الفساد الذي سينجم عن غياب المحاسبة، بسبب توفر ملاجىء الحماية للفاسدين مع تعدد المنظمات وتعدد الانظمة الباحثة عن مواقع نفوذ.

وهكذا، عندما وقع الغزو الاسرائيلي ـ وقد بدا من جانب اسرائيل تصميما على ايقاع الضربة القاضية ـ في صيف ١٩٨٢، اظهرت الساحة الفلسطينية مكوناتها السلبية والايجابية في مواجهة الحدث الطاغي.

اما السلبيات فتمثلت على الفور في انهيار عدد من المؤسسات منذ الايام الاولى للغزو، وفي